معركتنا معركة القوميّة الجديدة

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

عصرنا هذا ، لا القرن التاسع عشر ، هو عصر نشوء القوميات الحقة . وأيامنا هذه التي نحياها ، لا الأيام التي ظهر فيها « بسمارك » وأترابه من حملة النزعة القومية ، هي التي تحمل المعنى العميق لنشوء القوميات الصحيحة .

كل ما في الحياة العالمية يفصح عن هذه الحقيقة ، وكل ما في الاحداث الجسيمة التي تمر بها بلادنا العربية يشير الى هذا الواقع .

والمعركة العالمية اليوم ، التي جرّت اليها الحوادث في مصر العربية ، محمّلة قبل كل شيء بهذا المعنى الجديد للحياة القومية ولحركات البعث القومي في العالم. انها في اعماقها مرحلة تصفية لمفاهيم مضطربة ما زالت قائمة في بعض الأذهان عن معنى القومية والانسانية ، وهذه التصفية تلبس اليوم لبوساً واضحاً لا برقع فيه ولا زيف ، لأنها خرجت من نطاق الأفكار والأنظار الى نطاق الحديد والنار .

هذا المعنى القومي نجده الآن في الاعتداء الذي يقع على مصر وعلى العروبة من ورائها . فالذي أخاف الاستعمار قبل كل شيء حتى اذهله وافقده صوابه ، ذلك الوميض القومي السخي الثاوي وراء الحركات التحررية التي يقودها البطل جمال عبد الناصر . ذلك ان الاستعمار ما كان يخشى الى امد قريب تلك الصيحات التي كانت تظهر في البلاد العربية بين حين وحين . فمعظم تلك الصيحات التي كانت تتحدث عن العروبة وتنادي بها كانت صيحات ميتة غير قادرة على تحطيم العقبات التي تحول دون الوحدة العربية المنشودة ، لأنها كانت تنطلق غالباً من حكام لم يهبوا لها مضمونها الايجابي ، وكانت عندهم ضرباً من الحداء الذي يخدّر الشعوب . بل كانت صيحات خاوية لأنها تقترن عندهم في اكثر الأحيان، باعمال أخرى تنافيها وتعمل على تعطيلها . وحسبها ضعفاً ان الشعب كان يشعر بزيفها ويدرك انها لا تتجاوز الحناجر ويعي بالتالي ما بينه وبين القائلين بها من انفصام وتباعد .

أما عندما تحققت وحدة الشعور بين الشعب والقواد ، وعندما بدأ القواد أنفسهم يستبقون أحاسيس الشعب وتطلعاته ، فلقد شعر المستعمرون اذ ذاك ان الأمر غدا جداً ، وان تلك العواطف القومية الصادقة التي عرفوها عند الشعب العربي وجدت أخيراً من ينظمها ويحسن صياغتها في عمل فعّال جوّاب . وعند ذلك هالهم الأمر وحزموا امرهم على القضاء، في زعمهم ، على ذلك البطل الذي عرف أن كبار الرجال هم الذين يُخرجون من الامكان الى الفعل قوى الشعب المشتعلة تحت الرماد وتطلعاته الثاوية وسط الضباب .

ولهذا وجدنا الحجة الوحيدة الواقعية التي تذرع بها مستعمرو فرنسا وبريطانيا لتبرير اعتدائهم المبيّت ، خوفهم من جمال عبد الناصر ، اي خوفهم من القومية العربية الحرّة ممثلة في ذلك القائد العظيم .

لقد صرح المعتدون في شتى المحافل وفي غير خجل واستحياء ان الغاية الأولى من اعتدائهم القضاء على نظام الحكم الناصري — ان صح التعبير — وها هي ذي جريدة « لوموند» الفرنسية تقول في غير غمغمة في افتتاحية لها صدرت صباح الاعتداء :

« إن الامة العربية مسؤولة قبل غيرها عن متابعة المعركة ، معركة القومية الانسانية الحرّة . انها بنضالها تريد ان تثبت للعالم انّ معاني جديدة بدأت تُخلق ، قوامها نظرة قومية لا تتخذ العدوان مقصداً ، وانما تنشد الحياة المتآخية مع شتى القوميات المستقلة الحرّة »

« ان العمل الذي قامت به باريس ولوندره لن نستطيع الحكم عليه الا من خلال عواقبه . فاما ان ينهار حكم عبد الناصر خلال أمد قصير وتحرم العصبية العربية من البطل الذي كان يذكيها ، وعند ذلك تتداعى الانتقادات التي توجه اليوم الى هذا العمل ، لأن من عادة الناس دوماً ان يقبلوا المغامرات الناجحة ، واما ان تقوم في الشرق الأوسط حرب عصابات رغم النجاح الحربي المنتظر (!) ، وعند ذلك قد تتدخل الولايات المتحدة وروسيا في الأمر وتفرضان معاً حلا مشتركاً »

وفي العدد نفسه نقرأ لمراسل الجريدة في لندن ، وهو المحرر « جان ويتز Jean Witz » التصريح البيّن التالي :

« ان كثيراً من المطلعين في الأوساط الدبلوماسية الأنكليزية يدركون أن التدخل العسكري الذي تم في مصر يبتغي سحق عبد الناصر قبل أن يبتغي تحقيق الصلح مع اسرائيل » .

بل ان البيان الذي القاه «موليه» امام مجلس النيابي الفرنسي يوم اعلان الأنذار الفرنسي البريطاني الى مصر لا يشتمل على اكثر من هذا المبرر الوحيد لهذا الانذار العجيب ، نعني الرغبة في القضاء على رمز الحركة القومية العربية التي بدأت تخيف الاستعمار . فمما قاله في بيانه هذا :

«اننا نعرف نظام الحكم الذي يأخذ به عبد الناصر . ونعرف فوق هذا أنه لا يتردد في استخدام القوة وفي انتهاك الحقوق (؟) وان ننس لا ننس رفضه المتكرر للسماح للسفن الإسرائيلية بعبور قناة السويس رغم توسلات هيئة الأمم »

ويضيف الى ذلك :

« اننا في الوقت الذي تصرف فيه سفارتنا من عمان وتحرق قنصليتنا في القدس ومعاهدنا الثقافية في حلب ، لا نستطيع أن ننكر حاجتنا الى ضمانات مادية لتحقيق كل اتفاق »

و « موليه » يدرك دون شك ان وراء هذه الحركات التحررية في شتى البلدان العربية الروح التي أملتها مصر على الوطن العربي ، روح الاستقلال القومي والكرامة الانسانية .

بل ان المتتبع للأمور يدرك فوق هذا أن المحاولة الفاشلة التي قام بها الاستعماريون الفرنسيون والبريطانيون كانت تستهدف بعد القضاء على الوثبة في مصر وبعد ضرب القلب النابض من الحركة العربية الحرة ، القضاء على مثل هذا التوثب القومي الكريم في بلدان عربية أخرى تجاوبت مع مصر وتناغمت أوتار حياتها الروحية معها . واليك ما يكتبه ايضاً « جان ويتز » بهذا الصدد :

« ان بعض الخبراء في لندن يمدون أنظارهم الى المستقبل والى ما وراء هذا العمل العسكري الموجه الى مصر الآن ، ويتنبأون بمرحلة ثانية تلي هذه المرحلة . فهم يتوقعون بعد إعادة احتلال منطقة القناة خطوة ثانية هدفها ابتلاع الأردن.. واذا ما حاولت بعض بلدان الشرق الأوسط اذ ذاك مقاومة الغرب مقاومة عنيفة — فان المصالح الأميركية اذ ذاك ستكون مهددة اكثر من المصالح البريطانية » .

فهل من شك بعد هذا في ان المعركة في نظر المستعمرين هي معركة القضاء على حركة قومية سليمة تهدد مصالحهم المباشرة وتخرج البلدان العربية من عهد العبودية لهم ؟ وهل يمتري اثنان في ان الاهداف البعيدة للعمل الاستعماري تتلخص في محاولة الابقاء على وصاية لهم على البلاد العربية بعد أن بدأوا يرون رؤيا العين ان هذه البلاد تسير في طريق الوصاية على نفسها ؟

ثم ان تطور هذه المعركة في الميدان الدولي وفي ميدان هيئة الامم المتحدة ومجلس الأمن يفصح خير افصاح عن المعاني القومية التي تحملها هذه المرحلة من تاريخ العالم . أفلا ندرك أن الصراع الحقيقي لا يقوم بين دول تهزأ بالقيم الانسانية وأخرى تؤمن بها ، وانما يقوم عميقاً حاداً بين دول تخشى انبعاث الحركات القومية الحريئة في بعض البلدان وبين أخرى تجد في هذا الانبعاث فجر حياة جديدة للعالم كله ، قوامه التفاهم الانساني بين قوميات حرة والتعايش السلمي بين شعوب مستقلة ؟

والا فما الذي يفسر لجوء فرنسا وبريطانيا الى محاولة احتلال جزء من الأراضي المصرية بعد أن كانتا منذ أيام تثوران لوجود القوات الاجنبية في المجر ؟ان من حق المراسل الصحفي « هنري بيير » ان يكتب من « نيويورك » مقرراً أن أبطال الأخلاق الدولية يتخلون عن هذه الأخلاق ، وأن مندوبي فرنسا وانكلترا في الامم المتحدة يضطران الى أن يدافعا عما لا يمكن الدفاع عنه والى ان يلعبا دور « الاشخاص الحقيرين » .

ان المسألة اذن ليست مسألة ايمان بمبادئ انسانية او عدم ايمان بها ، انها في الواقع مسألة اضطراب في قبول الحركات القومية الجديدة ، وبالتالي في فهم المعاني التي بدأت تحملها القوميات في العصر الحاضر .

ان « موليه » يهزأ اليوم من مجلس الأمن ومن هيئة الأمم ، لا لأنهما لا يحميان حقوق الانسان ، ولكن لأنهما لا يقرانه على مخاوفه من الحركة القومية العربية الناشئة . ولهذا يسخر من الاخلاق الدولية امام المجلس النيابي الفرنسي وينادي : « يالها من اخلاق دولية رائعة ! ان من نتائجها ان يغدو الذي يقبل بالحكم الدولي خاسراً اذا كان ديمقراطياً ورابحاً اذا كان دكتاتوراً » .

ان العالم اليوم مشطور بوضوح شطرين . وليس هذان الشطران شطر المؤمنين بالقيم الانسانية وشطر المنكرين لها . فكلمة « قيم انسانية » كلمة عامة قد تحمل شتى الأوجه المتناقضة ، وهي لا تحمل مضموناً واضحاً الا عندما تنصب على حياة قومية معينة . ان شطري العالم اذن هما شطر المؤمنين بحق كل شعب في الحرية القومية والاستقلال القومي ، وشطر الخائفين من هذا الحق ، لأن في اقراره زوالا لامتيازاتهم .

وهكذا ترى ان العصر الحالي هو عصر الصراع القومي الحق . فالقرن التاسع عشر لم يكن في الواقع عصر الحريات القومية ، وانما كان عصر العصبيات القومية الضيقة المعتدية . لقد كان الزمن الذي رغبت فيه بعض الأمم بالغلبة والاعتداء وآمنت بتفوقها وصفاء عنصرها ، واعتقدت ان من حق هذا الصفاء العنصري ان يُخضع له شعوب الأرض .

اما اليوم فنحن امام الحركات القومية الحقة ، أمام القومية الانسانية التي تبتغي الحرية لكل شعب وتبتغي التضامن بين الشعوب في سبيل سعادة الانسان .

ومعنى هذا أن في وسعنا ان نجاوز ما قلناه حتى الآن فنعتبر العراك الحالي عراكا بين مفهومين للقومية ، اولهما المفهوم الذي خلفه القرن التاسع عشر واورثه بعض الدول الهرمة ، ونعني به مفهوم الغلبة والسيطرة وادعاء التفوق . وثانيهما المفهوم الذي بدأت توكده الشعوب الناشئة قبل الشعوب القوية ، ونعني به مفهوم القومية الحرة التي تعمل على وفاق واتساق مع الانسانية جمعاء ولا تدعي الغلبة او التفوق العنصري أو العسكري .

ولاشك ان البلاد العربية اليوم تسهم أقوى اسهام في توكيد هذا المفهوم الجديد وتوطيد اركانه . انها بطبيعة صراعها ونضالها من أجل حريتها القومية تمثل هذا الاتحاد العميق بين الغايات القومية والغايات الانسانية . وان في طراز تكوينها الحالي ما يجعلها خير رمز لهذا المفهوم الجديد ، مفهوم القومية الانسانية الحرة . فهي اولا بلاد ما زالت مجزأة مما يهب لنضالها طابع الوحدة القومية قبل كل شيء . وهي ما تزال تناضل ضد الاستعمار الذي لم يتخل بعد عن فكرة الغلبة والسيطرة ، مما يخلع على معركتها طابع الحرية الانسانية ، طابع انقاذ الانسانية من العبودية . وهي في الوقت نفسه ما تزال فريسة التأخر الاجتماعي الذي خلفه الاستعمار ، مما يجعل معركتها معركة

الاسلام في العالم

١ — المسلمون في المتوسط الشرقي

٢ — المسلمون في آسيا

دار المكشوف ، بيروت

صدر حديثاً عن دار المكشوف

في جزئين كبيرين كتاب

الروم

في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم

وصلاتهم بالعرب

للدكتور اسد رستم

تهدف الى رفع مستوى الانسانية المادي للبلوغ به الى المستوى الروحي المنشود .

ولهذا كانت هذه البلدان العربية مسؤولة قبل غيرها عن متابعة المعركة ، معركة القومية الانسانية الحرة . انها بنضالها تريد ان تثبت للعالم أن معاني جديدة بدأت تخلق قوامها نظرة قومية لا تتخذ العدوان مقصداً ، وانما تنشدالحياة المتآخية مع شتى القوميات المستقلة الحرة . انها بصمودها العنيد تقدم أمام المرجفين شاهداً على ان الحياة القومية الحرة حين تنبثق في شعب تأتي بالمعجزات . ان بطولة بور سعيد خير حجة تقدم للدفاع عن المفهوم الجديد للقومية ، مفهوم قومية تأبى ان تعتدي كما تأبى ان يعتدى عليها . وان الطاقة التي فجرها ايمان شعب بمستقبله الحر لخير دليل على ما في الانتماء الى الحياة القومية السليمة من قوة ونماء وفيض .

ومن هنا كانت معركة الشعب العربي عميقة الجذور وشيجة الصلة بالحياة ، بالحياة الحقة الثرة . ومن هنا جاءت قوتها ، واستقر النصر لها . وما التفاف العالم الحر حول هذه المعركة ذلك الالتفاف الصادق الصارم ، الا نتيجة لما تحمله من معاني عميقة الكيان في نفس الانسان ، ما دامت تحمل معها كرامة الانسان في قومه وروح المحبة لمن يشاطره هذه الكرامة .

وليس من قبيل الصدفة ان ترث المفهوم البالي للقومية ، مفهوم العنصرية والتفوق والاستعمار ، الدول التي شاخت قيمها وغدت تعيش على فتات الماضي ، والتي لم تحمل بعد الجرأة على طرح أثقالها وأسمالها ، ولم تستطع التحرر من ارث ماضيها . وليس من قبيل الصدفة ان تحمل المفهوم الجديد للقومية الدول الحية الناشئة ، وعلى رأسها الأمة العربية التي كانت في تاريخها تعبر عن ايمانها العميق بالوحدة الحقة بين قومية المرء وانسانيته .

إن النسغ الجاف ، النسغ الهرم ، لن يستطيع التغلب على البراعم المحملة بالرجاء والعطاء، براعم النفوس الحارة التواقة الى انقاذ كرامتها القومية والارتفاع بوجودها الى مستوى الوجود الانساني العزيز .

دمشق — **عبد الله عبد الدائم**

صدر اخيراً — عن دار الآداب

قناديل اشبيلية

مجموعة قصص رائعة للقصاص السوري المعروف

الدكتور عبد السلام العجيلي

قصص انسانية عميقة ذات جو سحريّ عجيب

ثمن النسخة ١٥٠ قرشاً لبنانياً او ما يعادلها

تطلب من دار الآداب — بيروت ص . ب ٤١٢٣